مشاهدات زراعية فى شمال سينا

للاستاذ عبد المنعم بلبع
مهندس قسم الكيميا بدمنهور

عند ما أقبلت أسراب الجراد فى يناير أتيحت لى فرصة التجول فى شمال سينا ودراسة مشاكلها عن كثب ، والتعرف إلى أحوالها والتحدث إلى أعرابها وهم بالنسبة الينا سكان الوادى قوم باعدت بيننا وبينهم ظروف الزمان .

ولقد كانت جولتى فى هذه الربوع تختلف بين الاستقرار أياما وأسابيع فى بعض الأحيان ، وبين المرور السريع العابر فى أحيان أخرى . ولقد ذرعت شمال سينا من القنطرة غربا حتى القصيمة ، ومن رفح شمالا حتى الكونتلا .

ويمتاز شمال سينا بوجه عام عن سينا الوسطى أو الجنوبية بأنه سهل منبسط ، وقد كنا كلما اتجهنا من ساحل البحر الأبيض إلى الجنوب كلما ارتفع سطح الأرض أمامنا وكثرت الجبال حتى تصبح فى الجنوب شاهقة سامقة .

ومساحة سينا تعادل مساحة المنزرع من مصر مرتين وتزيد ، فهى ١٤ مليون فدان تقريبا ، وتقول الإحصائيات أنه يزرع منها ٤٦ الف فدان ، وأن منها ١٥٦ ألف فدان مراعى وأغلب الزراعة والمراعى فى الشمال .

والمطر فى سينا هو العامل المحدد للمساحة المنزرعة ، ورب سنة ممطرة تنتج محصولا يكفى سكانها عدة سنوات كسنة ١٩٤٥ كما أن بعض سنى الجفاف تصيبهم بقحط وإمحال يضطرانهم إلى النزوح إلى فلسطين طلبا للمرعى وانتجاعا للرزق.

وأهم مايزرع فى شمال سينا هو الشعير وبعض القمح أو البقول شتاء ، والبطيخ وبعض الأذرة صيفا ، هذا فضلا عن النخيل وبعض حدائق البرتقال والحلويات حول رفح ، وبعض التين حول العريش ، والزيتون ويوجد قرب القصيمة عند عين الجديرات .

ولقد حدثت الزيارة فى موسم الشتاء ، من يناير — ابريل سنة ١٩٤٧ وكانت

للأسف سنة جافة بمحلة لم يسقط فيها المطر إلا لماما حتى سبب ذلك قلة المساحة المنزرعة شعيرا قلة ملحوظة واستتبعت قلة المطر ضعف نمو نباتات المراعى ، وما نجم عن ذلك من ضوء تغذية الأغنام والماعز والجمال .

وأهم مناطق الزراعة شرق العريش وحول رفح ، وتتناثر حقول الشعير شتاء والبطيخ صيفا بين العريش والقنطرة خصوصا فى الجزء المسمى بالزقبة . أما النخيل فيوجد فى كل مكان حيث الأرض المنخفضة ، وحيث يكون مستوى الماء الأرضى على بعد نحو مترين .

ومصدر الماء الأساسى فى سينا هو المطر أو السيول ، غير أن بعض الزراع قد قام بإنشاء طلبات لجذب الماء من عمق يصل الى ١٠٠ م ويلاحظ ذلك عند رفح حيث حدائق الموالح والحلويات ، كما أن بعض الجهات تستعمل ماء العيون فى الرى والشرب كعين الجديرات .

ولقد أتيحت لى زيارة كثير من حقول الشعير ، وكانت للأسف فى حالة سيئة تنذر بالخطر لشدة الجفاف ، وفسدت منها نسبة كبيرة جدا بعضها لم ينبت أصلا وبعضها أتلفه الجفاف فى أعمار مختلفة ، ولولا أن بعض هذا الشعير أدركته أمطار مارس لما بقي منه شيء .

أما حول عين الجديرات — وهى عين ينبثق منها الماء من الصخور — فقد رأيت القمح والحلبة ناميين نموا جيدا فضلا عن أشجار الزيتون والعنب وغيرها .

ويذكر الأعراب أن محصول فدان القمح الناتج فى السنوات التى يتوافر فيها المطر لايقل عن ثمانية أرادب .

وفى عين الجديرات هذه رأيت تنظيم توزيع مياه العين على الحقول ، فقد بنى سد على مجري الماء بعد خروجه من العين بنحو ½ كم ثم أقيمت قنوات من الأسمنت ومواسير من الحديد يجرى فيها الماء وتقفل وتفتح حسب دور كل حقل بواسطة محابس . ويشرف على توزيع الماء عامل عينته المحافظة . وللمحافظة فى هذه الجهة حديقة أهم ما بها أشجار الزيتون فضلا عن العنب وبعض أشجار الفاكهة الأخرى والصنوبر والسرو .

وهذه العين على تفاهتها وقلة شأنها — إذا قيست بموارد المياه — جعلت هذه البقعة الصحراوية القاحلة جنة فيحاء تحيطها الجبال .

وذكر لى الأعراب عن زراعة البطيخ لديهم الشيء الكثير كنت أتردد فى تصديقه ويكفى للتدليل على كثرته لديهم كثرة بالغة أنه غذاء الجمال الرئيسى فى الصيف . وعنـــد ما هطلت الأمطار فى منتصف مارس الماضى نشط الزراع نشاطا ملحوظا فى إعداد أرض البطيخ ، فرأيت المساحات المعدة والتى تمت زراعتها شاسعة لا يدرك البصر مداها على طـــول الطريق بين نقطـــة ابو عويقيلة والعريش وغيرها ، فالبطيخ يزرع فى كل مكان تتوافر فيه الرطوبة ، ويتلخص إعداد الأرض لزراعته فى تقطيعها إلى خطوط بعـد حرثها بالمحراث ، وقد استعمل بعض كبار الزراع جرارات لإعداد أكبر مساحة ممكنه . والأصناف المزروعة تكثر تقاويها محليا أو يحضرونها من بعض التجار بالوادى . ولا أستطيع تقدير جودتها ، لأنى لم أرها ، و (اللب) هو أحد المحاصيل الهامة التى يعوض ثمنها نفقات زراعة البطيخ .

أما حدائق رفح فقد زرت بها حديقة للحلويات والجوافة والنخيل ، وتستمد ماءها من بئر ارتوازية مركبة عليها طلمبة ترفع الماء من عمق ٩٠ متراً وماؤها لا بأس به ، وتنتشر هذه الطلمبات فى هذه المنطقة مع انتشار الحدائق بها .

أما تين العريش فينمو على مياه الأمطار والماء الجوفى ، ولم أكن فى موعد إثماره ، ولـكنهم يصفونه بأنه صغير حلو المذاق .

والنخيل فى سينا يكون ناحية من أهم نواحى الثروة الزراعية ، وتختار له الأرض المنخفضة القريب ماؤها الأرضى ، فيحفرون هنـاك مترين ويضعون السماد البلدى ثم يغرسون الفسيلة ويردمون على أكثر طولها ، ويبقى جزء من سطح الأرض ، فيذرب بالسعف ، وقد تحاط المساحة كلها بالأسلاك لحمايتها ، وعادة لا يجرى تسميدها مرة ثانية إلا بعد نحو عشر سنوات .

وثمر النخيل جيد ويعطى إيرادا طيبا من البلح الذى يصنع أغلبه عجوة ، وإذا كانت عجوة الوادى تنعت بالقـذارة فهى فى سيناء غير صالحة للأكل بأى حال ، فهم لا يتحوطون فى إبعاد الرمال عن البلح وقت صناعته ، ولهذا تكون عجوتهم مخلوطة بالرمل ، ولا يمكن أن تستساغ ، ويظهر أنهم صاروا يتعمدون ذلك تعمدا ،

لأنه أصبح الوسيلة الفعالة لتصدير العجوة إلى فلسطين ، فقد عدت عجوة سينا غير صالحة للتغذية بمصر . ولذا أبيح تصديرها « عجوة بالرمل » ويقبل عليها أعراب فلسطين فهم لايختلفون عن أعراب سينا فى شىء ، فضلا عن شدة الأزمة الغذائية بفلسطين .

وإننى أذكر هنا شكوى الكثيرين جدا من أهالى سينا خصوصا عرب العريش عند منطقة بير العبد ، فهم يشكون من مرض يصيب نخيلهم فيجعلها خشبا مسندة جافة العراجين لا تأتى بمحصول، وتظهر أعراض المرض على الأزهار ، ولم تتح لى فرصة التحقق مما يصيب هذا النخيل لعدم حلول وقت الإزهار ، ولكن الإصابة تتخذ مظهرا ساكنا تحت الكرثاف وقت الشتاء ، وأتوقع أن تكون نوعا من البق الدقيق ، وإننى أكتب هذه الكلمة ترديدا لشكوى هؤلاء الزراع فإن لهم علينا حقا يجب أن نؤديه كاملا ، وإن لهم ككل سكان المملكة أن يشكوا مما ينتابهم ، وعلى المختصين أن يقوموا بفحص شكاواهم بالهمة والإنصاف الواجبين ، والذى أعرفه أن أهالى هذه المنطقة — بير العبد — قد أرسلوا شكوى بل شكاوى كثيرة الى الوزارة يرجون فيها فحص نخيلهم والقيام بعلاجه قبل أن يعم البلاء فالمرض يزداد انتشارا على مدى السنين .

والمظهر الآخر للانتاج الزراعى بشمال سينا هو تربية الحيوان ، وأهم هذه الحيوانات على الإطلاق هو الجمل، ويهتمون فى تربيته بأنسابه ، فالجمل المنسب يعادل ثمنه ثلاثة أو أربعة جمال عادية ، ويقيمون فى بعض المناسبات سباقا تشترك فيه الجمال وتسجل نتيجته ويشهد عليها شيوخهم . ولهم فى تعليم الجمال و « تطبيعها » أحاديث لايملون من الانصات اليها والتحدث بها . ويهتم العربى بجمله اهتماما زائدا ، فيوفر له التبن والشعير شتاء مع المراعى إذا توفرت ، أما فى الصيف فالبطيخ هو الغذاء الأساسى .

ولايوجد البقر إلا فى منطقة رفح شمالا ، وقد لاحظت أنه فى حجم الجرسى وقد يشبهه شكلا ، وفى هذه المنطقة — رفح — توجد الحمير والخيول التى لاتوجد فى باقى الجهات .

وأظن أننى قد أوضحت أهم مظاهر الحياة الزراعية بهذه الجهات ، وأرى أن أختتم هذا الموضوع بذكر بعض ماتحتاجه سينا حتى تستقر بها الزراعة وتستعيد سابق حياتها التى تقرأ عن ازدهارها وبهجتها .

أول مايفكر فيه الزراع هو الماء ، فبه تتحول الصحارى إلى جنة فيحاء ، وهو المشكل الأول في سهول سينا ، فقد يعز نزوله فلا يرونه إلا قطرات لاتجدى؛ وقد يهطل فيها مدراراً أو تجتاحها السيول فتدمر مايعترضها تدميرا .

فتنظيم موارد الماء هو أهم ماتحتاجه هذه الجهات ، ونرجو أن يكون فى مشروع السدود الذى يجرى تنفيذه الآن مايحقق هذا الغرض ، فقد أقيم فى « الروافعة » على بعد ٥٠ كم من العريش سد يحجز أمامه ماء النيل فيحمى العريش شر ما كانت تتعرض له فى كثير من السنوات من غرق واكتساح نخيلها وتينها ، وانقطاع مواصلاتها، وعند ماأقبل سيل ١٥ مارس الماضى هادرا مزمجرا حجز أمام هذا السد كمية من الماء عمقها ١٥ م وطولها كيلو مترين وسيبنى سد آخر عند منطقة تدعى (الضيقة) وسيكون أضخم وأعظم ، وسيحجز كمية هائلة من الماء ، وسيكون نتيجة ذلك حماية هذه الجهات من السيول المدمرة التى تهدد الانتاج بكافة أنواعه وينظم تصريف الماء فى مجار تشق ، لذلك سيوضع الحجر الاساسى لاستعمار مساحة لا تقل عن ١٠٠ الف فدان شرق العريش

أما باقى الجهات التى لن تستفيد من هذا المشروع كمنطقة رفح وغرب العريش حتى القنطرة والجنوب عند القصيمة والحسنة وباقى الجهات حيث توجد سهول يمكن زراعتها فإن حفر الآبار هو الوسيله الوحيدة لضمان الانتاج بهذه الجهات . والتجارب البسيطة التى نفذها أعراب رفح خير مايدفعنا إلى تطبيقها دون خوف من المغامرة .

وفى سينا كما وضحت بداية زراعة نستطيع أن نتبين منها مايمكن أن ينجح بهذه الأصقاع ، فنعمل على زيادة العناية به ورعايته ، وإننى أرى أن هذه الجهات بتربتها الفكـكة التى تحتوى على نسبة عالية من الجير وماتمتاز به من بعد مستوى الماء الأرضى وشتائها البارد تستطيع أن تتخصص فى إنتاج الفاكهة خصوصا الحلويات والزيتون والتين واللوالح . ولعلها فى الأيام السابقة كانت من أهم المصادر التى تمد مصر بهذه المنتجات ، كما أرى أن مراعيها الواسعة ودراية أهلها بالأغنام والجمال تيسر جعل هذه المنطقة من أهم مناطق الانتاج الحيوانى .

وعلى ضوء هاتين الملاحظتين أرى أن نهتم بانشاء وحدة زراعية بالعريش تكون متقدمة لوحدات أخرى تنتشر فى مختلف المناطق الزراعية وتؤدى جميع أعمال الوحدات الزراعيـة بالوادى ، على أن يزداد اهتمامهـا خاصة بامداد الزراع بشتلات

الأصناف الجيدة من الفاكها وإدخال دم ممتاز فى أغنامهم وماعزهم ، والعناية بالمحافظة على جمالهم المنسبة ونشر تربية الماشية بها .

فاذا قدمت وسائل الانتاج وجب علينا تنظيم تصريف المنتجات . وأهم ماييسر ذلك هو المواصلات بين مختلف جهات سينا وبينها وبين الوادى .

ويلاحظ أن سينا ترتبط بمديرية الشرقية بقطار فلسطين الذى يخترق شمال سينا قرب الساحل وبطريق صحراوى معبد بين الاسماعيلية والعريش ، كما يشق سينا عدد من طرق الدرجة الثانية ، وأهم ماتحتاجه سينا فى هذه الناحية هو تخفيض أجور نقل البضائع والركاب على قطار فلسطين فضلا عن زيادة القطارات حتى يستطيع السكان تصريف منتجاتهم فى الوادي بأسعار معقولة ، فقد ذكر لى بعضهم أنه قد أرسل رسالة من البطيخ فكان ثمنها التى بيعت به فى القاهرة لايفى بأجرة النقل . وسينا أيضا فى حاجة إلى زيادة سيارات النقل وتقليل نفقاتها حتى تتعدد وسائل الاتصال بالوادى ، وهى أيضا فى حاجة ملحة إلى الغاء بعض القرارات التى تحد من اتصال أهل الوادى بسينا وتقيد التبادل التجارى مع سينا تقييدا شديدا . ويكفى لتوضيح ذلك أنه غير مسموح بعبور قناة السويس سواء أكان بالسيارات عند الاسماعيلية أم بالقطار عند القنطرة إلا بعد إبراز تصريح من مصلحة الحدود إذا كان المسافر من أهل الوادى أو تذكرة تحقيق الشخصية إذا كان عربيا . ويقوم رجال الجمارك بتفتيش أمتعته تفتيشا دقيقا وتحصيل رسوم على مامن معه من بعض المنتجات كما لو كان راحلا عن المملكة المصرية ، فلا شك أن هذه القيود تحد من اتصال سينا بالوادى وتعزلها عزلا كاملا عن الحياة المصرية ، وإن الغاء هذه القوانين من أهم الخطوات التى تدعم النهوض بهذه القطعة العزيزة من أرض الوطن ، وإن توفر الماء للزراعة وتحسين الإنتاج وتيسير وسائل الاتصال بالوادى هى الدعائم التى يقوم عليها تعمير هذه السهول الواسعة التى تقطنها حفنة من الأعراب لا يكاد يشغل عددها أحد أحياء القاهرة .

إن كل من يزور هذه الجهات يشعر شعوراً عميقاً بالأسف عند مايري هذه المساحات الشاسعة خربة خالية جافة ممحلة بينما أن من الممكن جعلها خضراء يانعة تنبض بالحركة وتذخر بالعمران ، وإن تبعتنا نحن الزراعيين لثقيلة ، فعلينا أن ندعو وأن نعمل جاهدين على خلق هذا الاقليم خلقا جديدا يبقى مفخرة للنهضة الزراعية ، ويصبح برهانا صادقا على مقدرة المشرفين على مقدرات الزراعة بمصر .